١ – بناء دولة – مصر محمد علي

[للدكتور محمد فؤاد شكري الأستاذ بجامعة فؤاد الأول
وزميليه الأستاذين عبد المقصود المناوي وسيد محمد خليل]

هذا كتاب كنا ننتظر صدوره من زمن بعيد ، فقد أضاف إلى مكتبة « محمد علي » كتاباً جديداً حافلا بالدراسة المستقلة من ناحية ، وبالوثائق السياسية من ناحية أخرى . أما الدراسة المستقلة فقد عالج المؤلفون في القسم الأول من الكتاب موضوع أحوال مصر الداخلية في عهد محمد علي معالجة لم تعتمد على تكرار ما هو متداول في كتب التاريخ ، مما هو معروف ومشهور ، بل أضافوا نواحي جديدة لم تظهر قبل في مؤلف عربي . وقد أتاح لهم ذلك اطلاع واسع على مكتبة « محمد علي باشا » الفنية في المؤلفات الأوربية . ولم يكتف المؤلفون بسرد آراء الأجانب على سبيل التدوين ، وإلا كان الكتاب سجلا تضيع معه قيمة التحقيق العلمي ، ولكنهم كانوا يناقشون الآراء في اعتزاز وصحة حكم حتى بدت على وجهها الصحيح .

أما الوثائق السياسية فهي خير علمي يضاف إلى ما في الكتاب من خير كثير ، فقد عمد المؤلفون إلى ترجمة بضعة من التقارير المعاصرة لعهد محمد علي وهو بهم ويمضي في بناء دولة مصر من الداخل ، وهي وثائق يطمئننا المؤلفون إلى أنهم رأوا في اختيارها ما يجعلها جديرة بالاطمئنان إليها في رسم صورة دقيقة للعصر الذي تتناوله . ومهما يختلف الرأي في قيمة التقارير تبعاً لما تمليه أهواء أصحابها أو عواطفهم فإنه مما لا شك فيه أن الأجانب كانت عيونهم مفتوحة على كل حركة يصدرها العامل الكبير ، وأنهم لم يدعوا ناحية من النواحي البنائية الإنشائية في مصر محمد علي إلا درسوها دراسة جدية ؛ حتى أن أحد هؤلاء وهو السير جون بورنج لم يترك في تقريره عن مصر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . فتحدث عن الزراعة والصناعة والضرائب والإدارة والجيش والتجارة والصحة العامة والقضاء والتعليم حديثاً مدعما بالإحصاء ومؤيداً باللاحظة الدقيقة ، ولما كانت البيانات الرسمية غير مسعفة له فقد كان يتصيد البيانات من مصادرها الأولى ؛ كما فعل في إحصائه عن معامل السكر التي كان يملكها ابرهيم باشا ؛ فقد طلب البيان من ناظر المعامل وترجمه ليكون ضمن تقريره .

وكان السير بورنج موفداً من قبل حكومته لوضع تقرير شامل عن حالة مصر ، فقدم إليها سنة ١٨٣٧ ، واتصل بكثير من الموظفين فيها للحصول على بياناته ، واستعان كثيراً بالقنصل الإنجليزي « كامبل » الذي زوده بكثير من الإحصاءات الزراعية والصناعية .

لقد كانت تقارير بورنج وكامبل وهودجسون ومن إليهم في غير متناول القارىء العربي ، إلا ما كان من نتف هنا وهناك يترجمها المؤرخون المصريون في معرض الحديث عن شيء معين ؛ ولكن مؤلفي هذا الكتاب قرأوا هذه التقارير كاملة من القارىء العربي ، بل سهلوا الحصول على تقرير بورنج الذي لا توجد منه في العالم إلا نسخ قليلة جداً .

٢ – الشمس الحزينة أو حياة غاندي

(تأليف الأستاذ محمد كاظم)

وهذا كتاب لطيف في حياة غاندي ، وهو أول كتاب عربي ألف في حياة المهاتما بعد مماته . ويمتاز بسلاسة في التعبير كأن المؤلف يحكي حكاية عن شمس كانت ساطعة ثم جنحت إلى الغروب . وقد كانت أم غاندي تنتظر الشمس ؛ عند شروقها فإذا ما رأتها ساطعة تهلل وجهها بالبشر كما خفق قلبها بالدعاء ؛ وكانت السحب الكثيفة حينما تلف وجه الشمس بالحجاب تبدو هذه الشعلة السماوية في ثياب الحزن ، كما تحزن أم غاندي ويحزن معها ولدها الصغير لأن السماء مظلمة .

ولهذا سمى المؤلف كتابه « الشمس الحزينة » .

لقد ظهرت كتب في العربية عن حياة غاندي كان المؤلفون يلتمسون منها المثالية الكاملة في إنسان رفعته الإنسانية العالية إلى مراتب « السوبرمان » . وظهر بعد وفاة غاندي كتاب الأستاذ كاظم هذا ، وكتب آخر للأستاذ طه السيد ظهر منذ بضعة من الأيام . فبدا غاندي بعد مماته أروع مما كان في حياته ؛ لأن الفكرة الخالدة لا تموت .

وكانت في حياتك لي عظات وأنت اليوم أوعظ منك حيا

وكان غاندي – كما يقول المؤلف – يصوم (ليواجه غضب الطبيعة وجهل البشرية ...) ؛ أما الطبيعة فلا سبيل إلى إرضائها متى ثارت ؛ لأنها تثور فوق إرادتنا ، وتجري على غير مشيئتنا ، فهل إلى تعقل البشرية الحمقاء من سبيل ؟

عبد الغني